

٢

الطريق الجديدة وتأثيرها

١٨٩٧ - ١٨٩٠

وقعت استقالة بسمرك في نفس الوقت الذي حل فيه ميخايل تجميد معاهدة
الضمان بين روسيا والمانيا فلما لاح أن مركز المستشاريات مزعزعا توجه اليه
السفير الروسي في برلين الكونت شوفالوف في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٠ ليسأله
رأيه في مد أجل الاتفاقات المعقودة في سنة ١٨٨٧ فأعرب له بسمارك عن
رغبته الاكيدة في الاستمساك بتلك الاتفاقات . كذلك كان الامبراطور الشاب
غليوم الثاني مؤيدا لتجديد المعاهدة على الرغم من شيء من الكراهية
الشخصية كان يضمه للقيصر اسكندر . وهكذا أمكن شوفالوف أن يسافر
الى بطرسبورغ ليحصل على الموافقة على مد الاتفاق السري ست سنوات .
فلما عاد لم يكن بسمرك في مركزه فقطع الروس المفاوضات في الحال . بيد
أن الامبراطور استدعى السفير اليه في ٢١ مارس وأكد له انه مصمم على
التصميم على أن لا يجيد عن موقفه الذي التزمه الى الآن حيال روسيا ،
وبذا لاح أن مد المعاهدة قد بات مضمونا بخاصة ووزير الخارجية الروسية
جيرس قد أعلن مرة رضاه عن هذا المد .

على انه حدث في برلين فجأة تحول حاسم إذ نصح خلفاء بسمرك باتباع
« طريق جديدة » في السياسة الالمانية . فكان أول مقتضيات هذه الطريق
الجديدة أن يصرف النظر عن معاهدة الضمان مع روسيا وقدأ بديت اعتبارات
مختلفة في بيان اسباب هذه الاجراءات تضمنتها بخذا غيرها مذكورة للكونت
ايرشم وكيل وزارة الخارجية مؤرخة في ٢٥ مارس سنة ١٨٩٠ إذ جاء في هذه
لمذكورة : أن المعاهدة خليقة أن تجر المانيا الى حرب فضلا عن انها تعد
بمثابة خديعة للنمسا وتمكن روسيا من افساد علاقات المانيا بملكة الطونة
وبايطاليا وانكلترا والباب العالي . وذلك دون أن تشمل على ما يضمن عدم

اعتداء فرنسا . هذا الى انها تجمل روسيا هي التي تحدد زمن الحرب التي قد
تنشب في المستقبل في أوروبا . وبنفس النظر عن هذه الجوانب العامة فان
هذه المعاهدة مما لا يمكن تنفيذه عملياً لان أى تقدم من ناحية روسيا نحو
بلغاريا سيحمل النمسا والمجر على الوقوف في وجهه ويجر المانيا تبعاً لذلك الى
ميدان القتال »

وفي ٢٧ مارس سنة ١٨٩٠ أصدر الامبراطور غقب اجتماعه بالمستشار
الامبراطوري الجديد الجنرال فون كاريقي أمره الى الجنرال فون شفمينتز
سفير المانيا في بطرسبورغ بأن يصرح في الموضع المناسب « بأن هذا الطرف
(برلين) يريد أن يحافظ مع روسيا على أطيح العلاقات لكن تغيير الاشخاص
الذي يحدث في الوقت الحاضر في المانيا والذي يحملنا على أن نتوخى الهدوء وان
لا ندخل في مفاوضات بعيدة المدى ، سبب في ذاته لان نرى من الانسب أن
لا نجدد المعاهدة »

بهذا اتخذ قرار على أعظم جانب من الأهمية وهدم جانب مهم من ذلك
البناء الذي شاده بسمرك حول المانيا تدريجاً بهمة لا حد لها ليضمن لمانيا الامن
من جهات كثيرة ، وقضى على تلك الرابطة السرية با كبر دولة عظمى على الحدود
الشرقية أن لا تقوم لها قائمة بعد الآن

وليس شك في ان الآراء الجوهرية التي سبق ايرادها ليست كل السبب الذي
حمل رجال واهل مشتراسه الجديدين على مسلكهم هذا فان ثمة أسباباً أخرى
وبواعث شخصية ربما كانت أقوى تأثيراً فيما اتخذ ، فضلاً عن انها تلقي على
أخلاق من باتوا من ذلك الحين أصحاب النفوذ الا كبر نوراً واضحاً

لقد اعترف صراحة خليفة بسمارك على مركز المستشار ، ذلك الجندي
الشريف ذو المواهب الجنرال فون كاريقي الذي لم تكن له خبرة بالسياسة ،
بأن المسألة عنده كانت أن يجعل فن سلفه العظيم - ذلك الفن الصعب - سهلاً
بما يمزجه به من كفاياته هو التي كانت دون كفايات سلفه بمراحل . فلقد

قال لبسمرك نفسه : « ان رجلا مثلك يستطيع أن يلعب بخمس كرات دفعة واحدة بينما غيرك يحسن اذا اقتصر على كرة أو اثنتين » وبالمثل ما جاء في كتاب الكونت برشم وهو : « ان سياسة معقدة كهذه (يعنى سياسة معاهدة الضمان التي كانت قائمة الى جانب المحالفة الثلاثية) كان نجاحها موضعاً للشك في كل وقت ، لا يسعنا أن نتابع السير عليها بعد اعتزال رجل الدولة الذي كان يستند في عمله الى ثلاثين سنة خبرة والى نفوذ غناطيسى فى الخارج » وهذه كلمات تدل على اعتراف صريح بتقصير الباع يزيد في أثره السيء بالنظر الى المتاعب الهائلة التي كان يسببها لكل زعيم مركز المانيا المعروف ، انه يظهر في الوقت عينه أن هذه المتاعب لم تكن تقدر في نطاقها الحقيقية إذ كان أولو الشأن يملأون على معالجتها بوسائل أخف مما كانت تعالج به الى وقتنا ذلك

على أن الخليفة الحقيقي لبسمرك باعتبار كونه مصر فالشؤون السياسية الالمانية لم يكن كبير في بحال من الاحوال بل كان رجلا في وزارة الخارجية هو المستشار المحاضر فريتس فون هولشتين . وقد ترقى هذا السياسى في عهد المستشار الامبراطورى الاول وظل مدة طويلة متصلا به اتصالاً وثيقاً حتى طرأ على علاقتهما ما كدرها فجعل يتملك أصغر الاثنين بفض شديد وأخذ يجد على رئيسه الذى اعتاد أن يأمر فيطاع وجداً لم يقلل من شدته انه كان خفياً . فكاد له في الخفاء ومد له من الدسائس حبلاً ساعدت على سقوطه بصورة حاسمة . ثم كان بعد ذلك أهم قوة محرّكة في مناهضة معاهدة الضمان والعمل على عدم تجديدها . ولا بد أن الرغبة في الحيولة دون رجوع البرنس أوتو كانت ذات أثر قوي في عمله . لذلك كان لابد من السير بمزم في « الطريق الجديدة » وقطع العلاقة الروسية التي كان يعنى حتى حينذاك بتعهداتها والحفاظة عليها . فجعل قسم وزارة الخارجية السياسى الذى كان هولشتين روحه يقدم المذكورة تلو الاخرى بالنصح بتكيب الطريق التي كانت الامور سائرة فيها الى ذلك الحين .

ولقد وقع هذا الموقف الألماني من أنفس الروس وقعاً سيئاً منذ اللحظة الأولى . وإذ كانوا في بطرسبورج قد تدلوا عقب خروج بسمرك وقبل أن يعلم قرار ألمانيا اعتقاداً منهم بأن ألمانيا تريد مد أجل معاهدة الضمان ، فقد أصابهم طبعاً شيء من الدهول عند ما صدع السفير الألماني فون شفينتز بالأمر الامبراطوري الآنف الذكر أي الرفض . وقد حاول المسيو دي جيرس وزير خارجية روسيا في الاسابيع التالية محاولات جديدة ابتغاء الوصول الى عقد المعاهدة مع ذلك . والمسيو دي جيرس هو أحد المقتنعين بضرورة مصادقة ألمانيا وهو الذي حمل قيصره اسكندر الثالث على أن يعقد الاتفاق السري مع ألمانيا مملناً الحرب العموان على خصوم ذوي نفوذ كانوا يطلبون انضمام دولتهم الى فرنسا . فكان يشير محذراً الى أن بلاده ستصبح منعزلة ، وأنه لا بد من البحث ما أمكن عن جهة يستند اليها . وكثيراً ما قدم اقتراحات وعرض عروضاً تدل على تساهل بعيد المدى ، ولكنه كان في كل مرة يصطدم برفض برلين التي لم تتحول عنه . وكان عبثاً حض الكونت فون شفينتز أيضاً على عدم رد يد روسيا الممدودة ، فان كل العروض كانت ترفض في أدب وبصورة ودية ولكن نهائية .

لقد كانت عواقب ذلك الفعل الحاسم الذي أقدم عليه الرجال الجديدون سرية ، فقد تحركت رأساً تلك القوى المنظمة التي كانت ترمى الى البطش بألمانيا والتي أراد بسمرك بتساهلاته السخية حيال روسيا أن يحول دون انطلاقتها ولقد أمكن السفير الفرنسي في بطرسبورغ في ٢٤ أغسطس ١٨٩٠ أن يبعث تقريراً يقول فيه ان التقرب بين فرنسا ودولة القياصرة يتحقق تدريجياً . ورأى ولاة الامور في باريس ان اللحظة التي يحق للجمهورية أن تأمل فيها الخروج من عزلة فرضها عليها بسمرك عشرين عاماً وأن تكسب في القارة حليفاً قويا باتت قاب قوسين . وصرعان ما نشطوا الى خطب ود الدولة السلافية التي هشت لهذه المساعي وبشت وان كان ذلك في شيء من الحيطه والحذر . ففي

٢٣ يولييه ١٨٩١ أدت عمارة بحرية فرنسية بقيادة الاميرال جير في كرونستات زيارة للروسيا كانت مصحوبة باحتفالات عديدة . وفي اليوم التالي قدم وزير خارجية فرنسا اقتراحا بمقدد محالفة بين الدولتين . وفي ٢١ أغسطس من نفس السنة كان « الاتفاق الودى » العام أمراً واقعياً وكان بموجبه على فرنسا والروسيا أن تتفاهما في المستقبل على المسائل السياسية الهامة وأن تتفقاً معاً على الاجراءات التي تتخذ اذا ما تعرض السلام للخطر .

بذلك تمت بالفعل أول خطوة في سبيل وضع الاساس للوافق الثلاثى الذى لم يلبث أن صار عاملاً هاماً في السياسة الاوربية . وقد ظلت فرنسا تثار حتى حصلت بدل الاصبع الذى كان ممدوداً لها على اليد كلها . فقد كانت لا تنى عن السعى وراء عقد اتفاق عسكري ظل الميسوجيرس وزير الخارجية الروسية يناهضه طويلاً . ففي سنة ١٨٩٢ وضع وزير الخارجية ريبو ووزير الحربية فريسينيه مشروفاً لهذا الاتفاق في باريس كان يتم بكل وضوح عن الغرض الممؤخى من هذا المشروع بأ كمله فقد كان القصد في حالة ما اذا اصطدمت روسيا وفرنسا بالمخالفة الثلاثية أن تلقى كلتا هما بكل قواهما في الميدان لا يقع الهزيمة بدول المخالفة الثلاثية اولا . لكن بطرسبورغ لم ترض بهذا وان كانت قد قبلت مشروعاً جديداً وقعه في ١٧ أغسطس اوبرتشييف وبواز ديفر رئيساً هيئة اركان الحرب في كل من الدولتين وكان بمثابة اتفاق ذي صبغة دفاعية (١)

وهكذا تم في الخفاء تبديل اساسى في مركز اوروبا السياسى بمخافيره . فنجحت فرنسا في الخروج من عزلة كانت مضطرة منذ سنة ١٨٧١ الى التزامها ، وانضمت روسيا بعد إذ خشيت التعرض للعزلة عقب رفض تجديد معاهدة الضمان الى الدولة العظمى الواقعة في غرب اوروبا . فانقسمت اوروبا من ذلك

الحين الي حزين فرنسا والروسيا في جانب ودول الوسط وهي المانيا والنمسا والمجر وايطاليا واليا رومانيا في الجانب الآخر . فبعد ان كانت كفة المانيا هي الراجحة اصبحت هنالك حالة جديدة يمكن نعمتها بحق انها توازن بين الدول وتبادل في الاتفاقات المعقودة بينها . على ان المانيا تعرضت لخطر الحرب في ميدانين وهو ما كان بسمرك يعمل على درئه بتلك الهمة . ولا يخفى ان طبيعة الحزبين تختلف احدهما عن الاخرى من اول الامر . فلقد كانت كبرى دول الوسط وهي المانيا ذات مصلحة اى مصلحة في المحافظة على السلام . وذلك لسبب بسيط جداً هو أنها لم تكن تسمى الى أغراض ما خارج حدودها الاوروبية . فالحالة التي كانت سائدة إذذاك كانت تفي بحاجتها وتضمن لها مركزاً سياسياً وقوة اقتصادية . ووثائق المانيا التي ترجع الى ما قبل الحرب ليس فيها على اتساع نطاقها موضع واحد يمكن ان يستخلص منه ولو بصنفة غير مباشرة ان برلين كانت تحذوها في اية ناحية نيات فتح خفية وفي هذا كان الطريق الجديد يتبع نفس الخطة التي اختطها بسمرك .

فلقد كانت كلما ابدت النمسا والمجر رغبات تم عن الميل الى التدخل في شئون الشرق الادنى لا تتأخر ولها مشتراسه عن التصريح بأنها لا تدخل لها في مغامرات كهذه . وفي سنة ١٨٩٦ عند ما حل موعد تجديد المحالفة الثلاثية خمس سنوات جاءت فينا باقتراحات تبغي بها تغيير نص المعاهدة وترمي الى اكتساب المانيا لتأييدها في الحصول على غايات ايجابية في البلقان اذ كان قادة مملكة الطونة يخشون أن يعظم نفوذ روسيا في بلاد البلقان الى درجة تهددهم وأن تفتح دولة القياصرة الاستانة اذا انحلت تركيا فأرادوا ان يستوثقوا من امكانهم الزحف هم أيضا في اللحظة الموعودة . فجاء موقف المانيا في كلمة وجيزة واضحة لمستشار الامبراطورية في ذلك الحين البرنس فون هو هنلوه وهي موجودة في مذكرة له بتاريخ ٢ مارس ١٨٩٦ وانصها « اننا مستمسكون

بالمخالفة الثلاثية جداً لـ لكننا لا نريد أن نجعل منها وسيلة لتحقيق خطط معينة للنمسا في الشرق فيجب ان تقنع النمسا بصيغة المخالفة الدفاعية اذا كانت لا تريد أن تسير الى الفناء » . فهذه الروح ظل العمل بالمهادنة كلما كان الامر يتعلق بمملكة هابسبورغ . أما حيال ايطاليا اقلق اعضاء المخالفة النمسا وقلقهم ضمناً في ساعة الشدة فقد رأت الحكومة الالمانية نفسها مضطرة فعلا في سنة ١٨٩١ الى التساهل معها في امور بعضها مما أدى بناء على رغبة رومه الى إدخال نصين جديدين على اتفاقية المخالفة يسيران مصالح الحليفة الجنوبية في البحر الابيض المتوسط اكثر من ذي قبل . فقد كان الامر يتعلق في احد هذين النصين بالمحافظة على الحالة فيما يختص بشواطئ الادرياتيك وبجراجه وجزرها وفي النص الثاني بشبه جزيرة برقة وطرابلس وتونس . ففما يتعلق بالمناطق الأخيرة تعهدت المانيا بتعويض ايطاليا في احتلال إحدى جهاتها اذا تزعمت الحالة القائمة . وقد تساهلت المانيا في الامرين وان كان على غير ارادتها وذلك تفادياً من فقدان حليفها في الجنوب اذا لم تجبها الى رغباتها . وهذه الظاهرة في سياسة برلين كانت تبدو دائماً كلما ظهرت سحابة في الافق الاوروبي تهدد بوقوع قتال . ذلك ان السلام كان في مصلحة المانيا ولازمة من لازمة هذه المصلحة . ومن ثم كان سهر الالمان عليه ومحاذرتهم الشديدة ان يكدر فضلاء عن محاربتهم التأثير على حلفائهم بتجنب كل مشروع خطر .

على انه كيف كانت الامور في الناحية الأخرى وبمباراة أخرى عند ذلك الفريق الفرنسي الروسي الذي كان قد ظهر ولما يكند . ليس من سبيل الى الشك في ان هذه الناحية كانت تحدها من بادىء الامر ميول بعينها ترمي الى احداث تغييرات في اوروبا . فقد كانت روسيا تتوق من قديم الزمان الى تحقيق غرض طالما اشتتهه : ذلك أن تلك الدولة السلافية العظيمة كانت تسعى الى ايجاد مخرج الى البحر الى الابيض المتوسط وترغب في ان تخضع لسلطانها

الاستانة عاصمة تركيا والمضائق التي تربط البحر الاسود والبحر الابيض المتوسط .
وفرق ذلك كان انصار التنازر مع فرنسا يأملون في اتساع النفوذ
الروسي في البلقان وكان دعاة الجامعة السلافية التي كانت تطالب بزعاة
روسيا لشعوب البلقان في الزاوية الجنوبية الشرقية من اوروبا — يحرضون
علانية وعلى الدوام ضد المانيا وذلك بقولهم ان المستشار الامبراطوري
الالمانى اتخذ موقفاً عدائياً لدولة القياصرة وهو ما لم يكن حقيقياً بحال من
الاحوال . وقد كان هذا دائماً منذ مؤتمر برلين المعهود في سنة ١٨٧٨ والذي
توسط فيه بسرك في انهاء الحروب الروسية التركية . وعلى كل فقد كانت
هنالك مساع تبذل لم تكن تتفق والاحتفاظ بالحالة الراهنة .

وفي فرنسا ؟ اننا نعلم أنهم لم يستطيعوا أن يتعزوا منذ سنة ١٨٧١ عن
فقدان السيادة التي كانت لهم في أوروبا . كما نعلم أن استرداد الازاس واللورين
كان الامنية الخفية التي كانت تحدد ذوى الوطنية ، أمنية لم يكن أحد يذكرها
لكنهم كانوا يفكرون دائماً فيها . ففي ابريل سنة ١٨٩١ أى في نفس الايام
التي كانت تتقرب فيها الجمهورية الى روسيا وصف الجنرال جاليفيه الفرنسى
الحالة بين فرنسا و المانيا ، على مارواه الملاحق العسكري الالمانى في باريس في
تقرير له ، كما يلى . « ليس أحد في الامتين يريد الحرب لكن كل العقلاء يرون
أن لامفر من هذه الحرب من أجل الازاس واللورين . ومن المؤكد — ما لم
تطرأ حوادث غير طادية ليست في الحسبان — ان فرنسا لن تكون البادية
يبد أنه اذا شمرت روسيا الحرب على المانيا فلن يكون في وسع حكومة ما
أن تمنع فرنسا عن الاشتراك » أما ان هذا رأى ليس رأى رجل عسكري وحده
بل انه يعبر أيضاً عما كان يجول في خواطر الدوائر السياسية فما تثبته الوثائق
العديدة التي ترجع الى تلك الايام .

لقد كانت باريس تسمى في سنة ١٨٩١ الى الضغط على روما ضغطاً شديداً
ابتغاء الحيولة دون تجديد المحالفة الثلاثية فقد سئل وزير الخارجية الايطالية
روديني من جانب فرنسا (وهذا وارد في أقوال له) : — « هل ايطاليا ملزمة

عساعدة المانيا في حالة ما اذا دخلت فرنسا حربا لاسترداد الالزاس واللورين «
وفي سنة ١٨٩٤ قال ريسمان السفير الايطالي في باريس مايلي : « ان فكرة اعادة
السيادة الفرنسية في أوروبا لا تزال حية في قلوب الفرنسيين أجمعين بلا مراء . . .
فقد أراد الفرنسيون أن ينتظروا أولا ريثما ينتهي أجل المحالفة الثلاثية أملا
منهم في أن لا تتجدد هذه المحالفة ثانية في سنة ١٨٩٦ وهذا يدل على أن
ذكرى سنة ١٨٧٠ - ١٨٧١ لم تملأش بعد ففرنسا تريد أن تحارب في المرة
المقبلة وهي واثقة تماما بقوتها الحربية » وأوضح عبارة من هذه الكلمات
مافاه به رئيس الوزارة الفرنسية برجوا سنة ١٨٩٦ للمدير العام بوديو الذي
بعثه كريسي رئيس الوزارة الايطالية الى باريس حينذاك إذ قال له صراحة
« أنه ما من حكومة فرنسية يسعها أن تجامل ايطاليا أو تتقرب اليها مادامت هذه
باقية في المحالفة الثلاثية . ان الرأي العام الفرنسي والسياسة الفرنسية . . .
سيكونان مهما ظهر على السطح من أمور مسيرين من الاعماق بفكرة واحدة
هي استرداد الالزاس واللورين فهذه المسألة مسألة الالزاس واللورين ستقدم
دائما على ما عدها الى أن تحل . وما دامت ايطاليا بمحالفتها لالمانيا تؤيد
المطالب الالمانية في الالزاس واللورين فلن تستطيع فرنسا أن تتساهل معها
في أية نقطة بل يجب أن تعمل ما استطاعت على أن تجعل حياتها صعبة » وليس
أوضح من هذا في الاعراب عن الباعث الذي كان يحرك الموقف في بلاد السين
ذلك الموقف الذي كان مرعي للانظار . و « استرداد الالزاس واللورين »
لم يكن ليتم إلا بتغيير الحالة التي كانت سائدة إذ ذلك . لهذا كانت في باريس
أيضا هبول محسوسة جدا معادية للسلام . فقد أرادوا أن يترقبوا ساعة
القصاص وان يمدوا العدة ما أمكن من كل جانب ليسيروا في المرة المقبلة « واثقين
كل الثقة » . ومن ثم عقدوا أول ما عقدوا ذلك الاتفاق العسكري مع روسيا
لقد كانت النقطة الثانية في برنامج باريس كما تؤيدها كلمات بورجوا :
اخراج ايطاليا من المحالفة الثلاثية . ومنذ عام ١٨٩١ ورجال ايطاليا يشكون
شكوى تزايدت على مر الايام من المضايقات التي تعرضت بلادهم لها من جانب

فرنسا . وقد صرح السفير ريسمان الذي أسلفنا ذكره في سنة ١٨٩٣ بقوله :
« ان علاقة ايطاليا بفرنسا تسوء على الدوام فان الفرنسيين أخذوا يسمون من
سنين سعيماً ظاهراً لصرفها عن المحالفة الثلاثية بالاضرار بمصالحها من الناحية
التجارية والمالية » وكتب بيلوف ممثل المانيا في روما في ذلك الحين يقول
في شهر يولييه ١٨٩٥ : « ان البارون بلان (وزير الخارجية الايطالية) لا يني
بذكرني في الايام الاخيرة بأن السياسة الفرنسية حيال ايطاليا تجري وراء
غرض واحد ، ولا توجهها الا وجهة نظر واحدة وذلك : التثريب بين ايطاليا
والمحالفة الثلاثية أو بمباراة أصبح ألمانيا . وسعى الفرنسيين الى تحقيق هذا
الغرض بالاساءة الى الايطاليين ومحاولة ارهابهم بمصاداتهم والتشكر لهم
لا بمحاسنتهم ، غلطة وبعد عن الكياسة . ذلك ان الايطالي كسائح لافونتين
تخلع عنه الشمس الملاطفة ممطفه ولا تحاذه عنه الريح الباردة . »

وهكذا كانت السياسة الفرنسية بعد أن زال عنها الضغط الشديد الذي
كانت تحذته يد بسمرك الماهرة تسعى سعيماً متواصل لا الى تقوية معسكرها
هي فحسب بل الى الاقلال أيضاً من شأن الفريق المعادي وعرقلة توسعه
ما أمكن . فكان القائمون على السين يندفعون الى الإمام في شيء كثير من
الضجة لا يأتفون من أية وسيلة يحطمون بها نظام المحالفات الذي أقامته
ألمانيا لضمان أمنها ، ذلك النظام الذي قام في وجه الجهود الفرنسية الطموحة
سداً منيماً .

وقد كان أول مافعله ولاية الامور في برلين أن حاولوا توسيع ماتبقى في
وسط أوروبا بعد أن لم تجدد معاهدة الضمان مع روسيا - تقول حاولوا توسيع
ماتبقى من هذه المحالفات وتكلمته من ناحية أخرى وذلك بالسعي الى التقرب
من بريطانيا العظمى . فكانت البداية حسنة نوعاً ما ، إذ عقدت في أول يولييه
١٨٩٥ معاهدة بين المانيا وانجلترا حصلت بموجبها المانيا على جزيرة هيلجو
لاند بينما أعطيت زنجبار للبريطانيين . وهذا فضلاً عما اتفق الفريقان عليه من

تحميد مستعمراتهما في أفريقيا . لكنه عقب ذلك بقليل تبين ان انجلترا
انما ترى المصلحة في الاستناد الى كتلة وسط أوروبا استناداً ضعيفاً جداً ، فلما
حاولت ايطاليا في سنة ١٨٩١ أن تجعل من الاتفاقات التي تبادلتها فيها
المذكرات مع بريطانيا العظمى في عهد بسمرك معاهدة مخالفة ثابتة الحدود
أعلن رئيس الوزارة البريطانية اللورد سالسبوري الى الكونت هتزلر سفير
المانيا في حديث له معه أثبتته الاخير في برقية بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٩١ ، انه
— أي اللورد سالسبوري — لا يسه « بالنظر الى الاحوال البرلمانية وتهميب زملائه »
أن يوافق على طلب ايطاليا . وقد تلت ذلك مفاوضات كانت هذه الآراء
تعود فيدلى بها فيها . وأيضاً لما أعقبت حكومة المحافظين وزارة للأحرار
لم تدم طويلاً لم يكن ممكناً حمل وزير خارجيتها اللورد روزبري على ابداء
تساهل يذكر . وكل ما أمكن الفوز به هو موافقة كتابية قدمها في خريف
١٨٩٢ وصرح فيها برأيه الشخصي المحض وهو « أنه اذا اعتدت فرنسا على
ايطاليا بالامبر فان مصالح انجلترا باعتبار كونها من دول البحر الابيض
المتوسط ودولة الهند ستحملها بطبيعة الحال على تأييد ايطاليا » فهذا التأكيد
المبهم كان كل ما أمكن روما أن تبلغه حينذاك .

وتقضت الايام فاذا بين لندن وبرلين احتكاك لايسر من أجل مسائل
تتعلق بالمستعمرات وبخاصة في أفريقيا . فقد ظهر جلياً تقريباً ان تلك الجزر
البريطانية الحاكمة العالم لم تكن تنظر بعين الرضا الى اتساع النفوذ الالماني في
مناطق ما وراء البحار فوق ما اتسع ، فأوغر هذا صدر برلين ايغاراً كان يزداد
على مر الايام وبات من المتعذر التوفيق بين وجهتي نظر الفريقين . فوطها مشتراسه
كانت تسعى الى ايجاد صلة ثابتة بين المحالفة الثلاثية وانجلترا بينما كان السياسة
البريطانيون يدلون في كل مرة على ميل الى اتخاذ دول الوسط مخفراً أمامياً
لهم في القارة يدافع عن مصالحهم . وقد كان مركز المانيا في هذا الشأن سيئاً

جداً لان القارة الاوربية كانت بمد إذ تم التحالف بين فرنسا والروسيا منقسمة الى معسكرين وهذا الطرف بعينه هو الذي مكن بريطانيا العظمى من أن تقف بمعزل عن الفريقين تستفيد من خصومتهم . وبخاصة اللورد سالسبورى الذي عاد الى الحكم سنة ١٨٩٥ فانه سار في هذه الطريق وعمل على ابقاء دولته في تلك «العزلة المجيدة» وهكذا كان الى جانب فريقى القارة فريق سياسى ثالث منعزل بنفسه وذلك الفريق هو إنجلترا .

لقد سعت المانيا كل سعي لمقاومة هذه الحالة التى كان معناها اضعاف مركزها فوق ضعفه فقصدت أولاً الى تحسين علاقاتها بالروسيا من جديد . ففي بدء عام ١٨٩٤ أنهيت حرب جبركية ظلت رحاها تدار عدة سنوات مع الدولة السلافية العظمى وقام مقامها اتفاق تجاري ، وبيان ذلك أن خاف كارينى الذى تولى منصب مستشار الريخ في خريف هذا العام بعينه كان خبيراً بالروسيا وقريباً للبيت القيصري ونعى به البرنس كودفيج فون هوهنلووه — شلنجنيرست ، فلما مات القيصر المجوز اسكندر الثالث في أول نوفمبر ١٨٩٤ بدأ الامبراطور الالماني يتبادل مع ابنه نيقولا الثاني رسائل شخصية حارة أملأ منه أن ينشر نفوذه على أكبر مقام في بطرسبورغ

وفي مستهل سنة ١٨٩٥ حدث حادث هام : فان خاتمة الحرب اليابانية الصينية فى الشرق الاقصى كانت نصراً باهراً للجزر اليابانية التى كانت تطورت من الوجهة العسكرية تطوراً قويا والتى كانت تسعى من ذلك الحين الى تثبيت أقدامها فوق القارة الاسيوية بمطالبة الصين بالنزول لها قبل كل شئ عن بورت آرثر وجزء من منشوريا فوق فورموزه وجزائر فيشر . هنا تبين مصرفو السياسة الالمانية « خطر الجنس الاصفر » وكانوا يبدا لتبادل الوزارات الآراء فى هذا الشأن ، فطالبت الروسيا الدول العظمى بأن تعترضن فى طوكيو سوية على نيات اليابان الواسعة النطاق إذ كانت للروسيا أكبر مصلحة فى أن لا يكون لها منافس جديد فى شرق آسيا حيث كانت تفكر فى نشر سلطانها

دائماً ، الامر الذي أفضى الى التناوب بينها وبين إنجلترا فعلاً . لكن إنجلترا رفضت الاشتراك في هذا العمل رامية بالاريب الى الابقاء على اليابان أولاً لتتخذها في مقتبل الايام حليفة لها . أما فرنسا حليفة روسيا فوافقت وكذلك فعلت المانيا . وفي خلال ذلك كان صلح شيمونوزيكي قد أمضى في ١٧ ابريل بين الصين واليابان فحصلت اليابان في القارة الاسيوية على المنطقة التي كان لا بد من النزول لها عنها ولكن مصغرة . غير أنها كانت تطالب دائماً مسافات مهمة . وفي ٢٣ ابريل رفع ممثلو روسيا وفرنسا والمانيا الى اليابان حض حكوماتهم لها على أن تصرف نظراً عن شواطئ آسيا . وكان أن استعمل وزير المانيا المنفوض في هذا التبليغ لهجة شديدة متخطيا تعليمات برلين فأثار بذلك في طوكيو شعوراً مراً بالمذلة وهي التي كانت ترى في احتجاج الدول الاوربية الثلاث حرمانا لها من جانب من ثمار انتصارها . وقد اضطرت اليابان الى الرضوخ والتنزل عما كانت تسمى الى امتلاكها في آسيا .

ان الاعترافات التي أدت بالمانيا الى مؤازرة روسيا مؤازرة قوية في رغباتها في شرق آسيا كانت ترمي في جوهرها الى تحسين مركز المانيا في أوروبا . فقد كانت الفكرة انه اذا نجحت المانيا في « تثبيت روسيا في شرق آسيا » وبعبارة أخرى في تشجيع الدولة السلافية العظمى على التوسع في الشرق الاقصى ، فان الضغط على ما يسمى بالشرق الادنى في الجانب الاوربي ذلك الضغط الخطر يختمى اذ ذلك . كذلك كان يؤمل أن تنصرف دولة القياصرة عن خططها في البلقان وتعهدل عن الاستانة فتنتفي بذلك الخصومة بين فينا وبترسبورغ ويرتفع الخطر عن الجبهة الالمانية الشرقية . وفي الواقع ان عشر السنوات التي تلت كانت تثبت صواب هذه الفكرة ، فان العلاقات بين دول الوسط والروسيا تولاها الهدوء عقب ذلك . اذ اجتمع في سبتمبر ١٨٩٦ القيصر نيقولا الثاني والامبراطور غليوم في سيليزيا واتفق كلاهما على المحافظة

على تركيا بكيانها الذي كانت عليه اذ ذاك . ولم يكن معنى هذا ان الروسية وقفت مؤقتاً عن السعى الى احداث تغييرات في تلك الجهة بل ان معناه رضاؤها بأن تبقى العلاقة بين البحرين الاسود والابيض المتوسط زمننا ما في أيدي الدولة العثمانية الواهنة حتى لا تأتي دلي الاقل دولة أخرى وتثبت اقدامها هناك . وقد أعقب ذلك بقليل أي في سنة ١٨٩٧ أن عقد بين النمسا والمجر والروسيا اتفاق تمهدت بموجبه كلاتها بالمحافظة على حالة الشرق الادنى اذ ذلك . وهكذا تحولت الهولة الروسية فعلا عن أوروبا الى آسيا تطاب فيها أرضا ومخرجا أميناً الى البحر اذا أمكن .

كل هذه الحوادث أثرت في حالة أوروبا بأسرها تأثيراً عظيماً فتراخى من الجهة الشرقية ذلك الطوق المزدوج الذي ضربته المحالفة الروسية الفرنسية حول ألمانيا . واضطرت فرنسا ، حتى لا تخسر صديقتها السلافى الى الموافقة على تحوله . ولما كانت الجمهورية في نفس الوقت يزداد ما بينها وبين انجائرة من تضارب المصالح من جراء مساعيها الاستعمارية في افريقيا على الاخص ، نشأ شيء يشبه التقرب بين دول القارة الاوربية حتى لم تعد عزلة انجائره تبدو عزلة مختارة فحسب بل ظهرت كأنها وحدة اجبارية . وكان على الاثر أن انصرف ولاية الامور في برلين عن الجزر البريطانية المتدلة بسبب فشل المساعي التي بذلت للتقرب منها . فكانوا يتحدثون بتأليف عصبة في القارة ضد بريطانيا العظمى يحدوهم بالتأكيده غرض غير ظاهر هو جعل انجائره على التحالف معهم مؤملياً أن تأتي انجائره يوماً فتطاب من نفسها ذلك التقرب .

وليس شك في أن الحكومة الانجائرية قد نظرت الى تبدل الحال بجملةتها في القارة في شيء من القلق وأنها سمعت الى مناهضتها . ومن محاولاتها في هذا السبيل ان سالسبورى ظهر في صيف ١٨٩٥ بفكرة تقسيم تركيا . فقد خاطب السفير الألماني في لندن بدون واسطة تقريباً وعقب السعى المشترك الذي وجهته الروسية وفرنسا والمانيات ضد معاهدة شيمونوزيكي ببضعة اشهر ، تقول

خاطب السفير الألماني الكونت هتزل في تقسيم الامبراطورية العثمانية « المتعفة ». وكان يتكلم بذلك في حذر وبلهجة ليست واضحة كل الوضوح لكنه خصص من أجزاء تركيا البانيا وطرابلس لثمنى بهما إيطاليا وكان يوضح انه يريد ان يجيب روسيا الى رغباتها في الاستانة الى حد معين . وهذه النقطة الأخرى من شأنها أن تستهوي استهواء مدهشاً جداً . ذلك ان مبدأ ثابتاً من مبادئ السياسة الإنجليزية كان منذ عشرات السنين وظل بعد ذلك : العزم على عدم السماح لدولة القياصرة بأن تصبح المتسلطة على المضائق لأنها بذلك يمكن أن تشيع الاضطراب في علاقة بريطانيا بالهند . واذن فلا بد من افتراض ان الاقتراح كان يرمي قبل كل شيء الى أن يوقظ في أوروبا تلك المنازعات التي كانت خلافاً لمصلحة إنجلترا توشك أن تنام بعد إذ تحولت روسيا عن الشرق الأدنى الى الأقصى . وقد رد هتزل في الحال بحق إذ قال كيف يمكن أن يعتقد رئيس الوزارة البريطانية بإمكان تقسيم الامبراطورية العثمانية بين ذوي الشأن « تقسماً ودياً » . ولقمت برلين النظر الى أن سعى إيطاليا نحو البانيا وطرابلس يوجد بين النمسا وإيطاليا هوة واسعة ويقضى من جراء ذلك على المحالفة الثلاثية . ثم رفضت هذه الخطة في عزم لانهم لم يريدوا أن تثار في صورة مفتعلة كافة مشا كل الشرق الأدنى التي كانت اذ ذاك هادئة . وهكذا لم يلبث سالسبورى أن عدل موقفه وأن اعترف بعد ذلك بأنه لم ينتو أن يعطى الدردنيل للروسين .

بعد ان رد ذلك الهجوم الخفى عن مركز القارة الجديد الذي كان في مصلحة المانيا اكثر من غيره ، لم تكن وزارة الخارجية الألمانية قد قطعت الامل بتاتا في أن تنضج انكلترا يوماً لفكرة التحالف مع المانيا .

بيد ان رجال هذه الوزارة سلكوا للوصول الى هذا الغرض سبيلاً معكوسة فجعلوا يظهرون الشدة لبريطانيا العظمى عياناً ابتغاء اقناعها بحولهم والتدليل لها على قوتهم وهم في هذا يحذوهم شعورهم بتحسّن مركز بلادهم . من

ذلك انه لما ذاع في أواخر سنة ١٨٩٥ أن الانكليزي جيمسن غزا دولة البوير في جنوب أفريقيا هبت الحكومة الالمانية التي كانت المعنية إذ ذاك بتهديد العلاقات الطيبة مع البوير تخشى أن تضم انكثرة بلادهم اليها، تطالب بالمحافظة على استقلال الترنسفال بدعوى أن لها هناك مصالح تجارية هامة تريد أن تصان . وفي نفس الوقت لمحت للندن بان لاحاجة بها الى المفاولة في تقدير الخصومة القائمة بين فريقى الدول الاوروبية « لان هذه الخصومة خفت كثيراً في الايام الاخيرة ، وان فكرة حل ما بين هذه الدول من مسائل قائمة دون التفات الى المصالح الانكليزية قد تجدد هوى في انفس دوائر كثيرة اذا طرحت في صورة بارزة » ومعنى هذا ان المانيا تحذر بريطانيا العظمى بأن لا تتجاهلها . ثم لما جاء الخبر بأن البوير هزموا متطوعة جيمسن بعث الامبراطور غليوم في ٣ يناير ١٨٩٦ الى كروجر بتلغراف كتب في وزارة الخارجية يهنيء فيه رئيس الترنسفال بنجاحه في رد الاعتداء الخارجى عن استقلال بلاده فأثارت هذه البرقية في بريطانيا العظمى سخطاً عظيماً لان هذه البلاد كانت تعتبر البوير رعايا انكثرة فعدت هذا الامر عملاً غير ودي وتدخل غير مقبول . وسادت صحف الجزر البريطانية لهجة تنم عن « مرارة عامة وامتعاض عميق جداً » على أن برلين كانت تلتطف بتأثيرها من شدة مطالب البوير التي كانت بعيدة المدى تذهب حتى الى الانفصال عن انجلترا وازن هولشتين أملاً في أن يحمل غرنا على السير مع المانيا وسمى فوق ذلك الى اشراك روسيا أيضاً . رامياً من وراء هذا الى تحقيق فكرة الكتلة الاوروبية . لكنه لم يلق أذناً صاغية أو قلباً يبادله الود فان بعض الصحف الباريسية الكبرى كان يذكر صراحة بالانزاس واللورين ويعلم أن لا ينبغي أن تعقد محادثات غير طبيعية . وليس شك في ان هذا الحادث بخلافه قد ساعدت السبورى على تنفيذ خطته التي أصمى الفكرة فيها طويلاً وهى التنصل بتاتاً من المحالفة الثلاثية . وذلك انه لما سمعت النمسا لدى لندن في أوائل سنة ١٨٩٦ الى مد أجل الاتفاق

المعقود سنة ١٨٨٧ بين مملكة الطوننة وإيطاليا وانكثرا على شؤون البحر الأبيض المتوسط وتوسيم نطاقه ، كان جواب رئيس الوزارة الأنجليزية بالرفض . وبذا تمت « العزلة المجيدة » التي لم تن الجزر البريطانية عن طلبها إذ قطعت تلك العلاقة المتراخية بالمخالفة الثلاثية وبتت صلة كانت تزداد مع الأيام وهنا وكان أن وقع تقيض ما كانت برلين تأمله وتتمناه . ولقد جعل الامبراطور غليوم الثاني عقب ذلك يشير عبثاً لبريطانيا العظمى الى الاخطار التي تهددها من فرنسا ويدعوها الى الانضمام الى المحالفة الثلاثية .

لقد كان موقف الرفض الذي وقفته بريطانيا العظمى خطراً بالنظر الى إيطاليا بنوع خاص . فان هذه الدولة تنتمي الى دول البحر الأبيض المتوسط قبل كل شيء . فلم يكن بد لها من الاعتماد على ما بين فرنسا وإنجلترا من تنافر لتحاول بالاستناد الى هذه الناحية أو تلك تحقيق ما تطالبه . فلما سحبت إنجلترا يدها منها أصبح يخشى أن ترجح كفة الدين يسعون في إيطاليا الى توجيه السياسة الإيطالية نحو فرنسا . وقد كانت إيطاليا متورطة في الحبشة في حرب استعمارية عصيبة حينما أخذ اللورد سالسبوري ينفذ عزمه على التحول عن المحالفة الثلاثية . وكان يلوح في الوقت نفسه كأنما تنشأ الرابطة بين انكثرة وفرنسا بعد ان عقد الفريقان اتفاقاً في شأن سيبام على انه قد أعقب ذلك بقايل أن اشتد التنافر بين بريطانيا وفرنسا في البحر الأبيض المتوسط إذ دفع وزير المستعمرات البريطانية تشمبرلين اللورد سالسبوري الى أن ينتهز فرصة وقوع قلاقل في الاقطار المصرية لتسيير حملة عسكرية في جنوب تلك الدولة التي كانت تحتلها بريطانيا العظمى . وقد صور عمله هذا بأنه لشد أزر الحنود الإيطالية في الحبشة فأرضى برلين كثيراً ، لكنه أسخط باريس التي قابلته بأشد مقاومة لانها كانت ترى أن سالسبوري إنما يرمى الى تقوية مركز انكثرا في مصر وجعل احتلالها لتلك البلاد أبدياً . وقد انضمت الروسية

الى باريس في موقفها هذا فاشتد بذلك الخلاف بين المحالفة الثنائية والجزر البريطانية ومع ذلك فلم يفض هذا الموقف الى احداث أي تغيير جوهري في سياسة السبوري ، كما ان انصراف روسيا عن المسائل الاوروبية — وهو الذي تقرر كما مر بنا بالمعاهدة التي عقدت مع النمسا على الشرق الادنى — لم يكن له أدنى تأثير في رئيس الوزارة الانكليزية. فقد تعمقت انكسار في وحدتها حتى لخص هو هنا هو المستشار الامبراطوري في شهر فبراير سنة ١٨٩٧ وبمناسبة ثورة كريت ، ما لقيته المانيا مع انكسار ، في تلك الكلمات المرة إذ قال . « تعهد من جانبنا وحرية في العمل من جانب انكسار . لقد كان هذا في هذه المرة كما كان في كل مرة العقبة التي تمرض طريق التفاهم . »

انما لو لم نلخصنا النتائج التي تمخضت عنها السنوات السبع التالية لاعتزال بسرك منصب مستشار الامبراطورية لما كان لنا محيص عن تقرير أن مركز الامبراطورية الالمانية ساء بلا ريب . فقد ذهب عنها أمنها في القارة وهو الذي كانت تبرز فيه غيرها . وصحيح ان الخطر الذي كان يهددها من ناحية فرنسا وروسيا وتحالفهما معاً كان قد خف بتحول روسيا الى آسيا لكنه كان موجوداً وظل كذلك . وقد فقدت المحالفة في حين شيئاً من أهميتها وان كانت قد ظل محتفظاً بآبائها عدة للمستقبل هذا الى انه لم يمكن التغلب على ذلك الشقاق المشؤوم الذي قسم أوروبا الى فريقين . وفوق ذلك فان المانيا لم تجد بديلاً من تماهدها مع روسيا بالتماقد من انجلترا . اذ كان الامر على النقيض من ذلك فتنصت الجزائر البريطانية من المحالفة الثلاثية ووقفت قبالة المعسكرين الاوربيين مستقلة عنهما تستطيع في المستقبل أن تختار بملء حرمتها بين الفريقين من يكسبه انضمامها الرجحان . أما نظام المحالفة الثلاثية فقد كان فوق ما أصابه من ضآلة يزخر بتغيرات مقلقة لم تكن في صالحه على مر الايام . فان ايطاليا التي كانت بادىء بدء تعلق أهمية كبرى على عقد اتفاق مع انجلترا أصبحت يلاحظ عليها ميل بعينه الى تحقيق أغراضها في البحر الابيض المتوسط بالتقرب الى

فرنسا . ومملكة الطوننة التي تركتها بريطانيا العظمى وحدها تعالج وقف التقدم الروسي في الشرق الأدنى ، سرعان ما جعلت من ذلك الحين تدكر في جرمانيا حليفها القوية في الشمال الى مسيرتها في تحقيق رغباتها . أما المانيا فكانت بالتأكيذ تدفم هذا في عزم لكنه كان يخشى ان يأتي وقت إن عاجلا وإن آجلا تضطر فيه الى التساهل مع صديقتها الوحيدة المضمونة ولا ريب ان مصر في أمور المانيا كانوا يجهلون المصاعب الهائلة التي كانت تكنتف مهمتهم . فقد أموا أول ما أموا أن تكون بينهم وبين انجلترا رابطة وثيقة وتركوا روسيا من أجل ذلك قبل أن يبلغوا غرضهم . ثم لما تحالفت روسيا مع فرنسا وبقيت انجلترا تتدال حارلوا أن يحكموا صلاتهم بالروسيا من جديد وحلوا حتى بالمضى مع فرنسا . ومسلك كهذا ما كان ليخطر ببال ابدأ لو انهم لم يغالوا في تقدير قوتهم .

كان « الطريق الجديد » الذي سارت فيه السياسة الالمانية بعد المستشار الامبراطوري الاول يختلف عن طريق هذا المستشار بقدر انطلاق رجال العهد الجديد الى ميدان السياسة العالمية غير المأمون وتوغلهم فيه بكل قواهم . وصحيح كل الصحة أن المانيا لم تكن بالنسبة لغيرها من الدول العظمى بل بالنسبة الى دول من الدرجة الثانية تملك في البلدان الاجنبية الا أراضي قليلة جداً ضئيلة النعم كانت تبعث اليها بما يزيد من أبنائها وتقضى فيها لباناتها من المواد الاولية . فقد كانت الصناعة في تلك الاثناء قد ازدهرت في بلادها وازداد سكانها وخرج تجارها يريدون أرض الله الواسعة . وكان روح التقدم والتوسم ، ذلك الروح الذي أوصل بلاداً أخرى الى طلب وامتلاك طائفة من المستعمرات الهائلة . يتطلب عملاً ونجاحاً . ولم يكن هذا الروح سطحياً مفتعلاً بل هو قد لازم قوة طبيعية نامية وخرج معها من أعماق أمة أجدت سياسياً وجعلت تبشكر وتوجد وتنمو قوية لا يعتور مجهودها كلال . هذا الروح لم يلبث أيضاً أن انتقل بطبيعة الحال الى رجال كانوا في القنة وكانوا يديرون دفعة

السفينة . لكنه جعل على الانظار غشاوة حالت دون استبانة قوانين الحقيقة العارمة ، وحملت الناس على نسيان ان الدولة الالمانية كانت لانزال في نظر الغير تلك الحديثة النعمة بين دول استحوذ عليها حب الاستعمار ، وانها وهي القائمة وسط القارة عرضة للاخطار بحاجة الى قاعدة أمينة واسعة ما أمكن تركيز عليها قبل أن تقفز الى القضاء المرامي الاطراف لكن المانيا بدل ان تفعل ذلك حاولت لتفتها الشعبية التي كانت تعظم على الدوام — أن تنزع لنفسها كلما سنحت فرصة مركزاً صالحاً فيما وراء البحار غير مستندة في ذلك الاعلى قاعدة المحالفة الثلاثية . فأعلنت في همسة وبصورة تنطوي على التمرع عن مطالبها المتواضعة حقاً ولم تجعل بالها الى أنها بذلك قد غيرت انفس أقرب جيرانها اليها وأثارتهم وهم الذين كانوا يسهرون على أموالهم يحدوهم حسد النني لا حسد الفقير والاول أشد خطراً وأبلغ مضرة . وليس شك في أن الالمان كانوا على حق من جهة المبدأ في أنهم أرادوا هم أيضاً لانفسهم شيئاً حيث رأوا الغير يجمعون كل ما أمكن أن تعمل اليه أيديهم . لكن الصورة التي كانوا يعلنون بها مطالبهم للناس كان يصحبها شيء من ضجة الصبيان الذين لم تعركهم الايام فكانت هذه الضجة تؤذي اليافعين حيث لم تكن هناك حاجة الى ازعاجهم . ومن الامثلة البينة على ذلك ، المظهر الذي ظهرت به برلين في مسألة الترنسفال ، فان مسلكها كله كان من شأنه أن يجعل الغير يرون فيها لازمات حديث النعمة وصفاته وهم الذين كانوا لا ينفكون عن وصفها بهذا الوصف فسبغت بذلك على مناظرها الذين كانوا ينفسون عليها مركزها تسويء سمعتها وتصويرها في صورة المسكر للسلام ، الامر الذي كانت بميدة عنه كل البعد .

لقد كان طبماً بعض القادة يخلعون من لونها وأسلوبهم على السياسة الالمانية بمقدار كبير . أما العالم فكان لا يرى في المقدمة الا الامبراطور غليوم الثاني ذلك الملك النقي الذي أقال بسمرلث من عمله . ولقد عنيت دعاية خصومنا

في الحرب العظمى بتصوير ذلك السيد في صورة المستبد الذي لا ينى يحاول اخضاع أوروبا بل العالم كله لو أمكن لمشيئته وسلطانه . وليس في هذا كاه ذرة من الحقيقة فان غليوم الثاني كان في الواقع على نقیض تلك الطباع التي تتطلب السيادة والتوسع في السلطان في عزم ثابت دون أن يكون لصالح الغير في نظرها أي اعتبار . فقد كان غليوم الثاني رجلاً حمله استعدادة الخيال الى الاعتقاد بأن الله أجلسه على العرش فدفعه يقينه بقضية رسالته الى أن يطلق العنان لحالاته النفسية الدائمة وانفعالاته القوية الكثيرة التبدل . وهو لم تكن تنقصه بحال من الاحوال غريزة سليمة بل ان نفس الحواشي المرذولة التي كان يجب أن يعلق بها على أوراق الحكومة محتدياً في ذلك مثال حده العظيم فريدريك الثاني كانت تم عن أنه كان يتبين الصواب من اللحظة الاولى . لكن الذي كان بنقصه هو ضبط عنان التفكير الطليق والوضوح الذي يجب أن يلازم الحساب السياسي المنطقي . فكان أن جعل الناس والحوادث التي كانت تفعل في شعوره تؤثر عليه وتطوح به . فهو كان اذ ضعيفاً أكثر منه قوياً . وكثيراً ما كان يقصد بالكلمات الضخمة التي كان ينطق بها وحرركات العظمة التي كان يبديها اخفاء قلق يساوره .

ولقد كان في نظر العالم المحيط به ككل الذين يستحوذ عليهم الشعور بانهم فوق غيرهم مرتبة ، لا يمكن التكهن بما يمكن أن يصدر عنهم . فقد كان في المجتمع خليقاً أن يأمر بلطفه النلوب كما كان ممكناً أن يسيء الى الانفس اساءة بليغة . وقد سدت عليه الطرق الى العالم الحقيقي رغباته وآمله وخواطئه الشخصية الجارحة . ولا شك مطلقاً في انه كانت تحدوه ارادة شريفة لعمل الخير لامتة كما كان مؤكداً انه كان من انصار السلام الصميمين . فانه في نفس الوقت الذي كان يتكلم فيه عن سيفه كان يفعل ذلك تهيباً من تجريده ولانه كان يأمل أن يكفي الانذار بقوة المانيا الحربية دون استخدام هذه القوة . ولم يكن يفكر وهو يفعل ذلك في أن من السهل أن يستغل من لا يريد وزله الخير

هذه السمكيات ضده فيصوّرونها على أنها تصريحات جديدة تكشف عن رغبة خطيرة في الحرب . ولو أنه كان يرمي حقيقة إلى حرب أو غزو لمافوت على نفسه كل الفرص التي أتيححت له أيام حكمه للدخول في حرب يمنع بها فرنسا من أن تقوي على مر الايام على مقاومته . فلقد كان ينبغي السلام لان الاقدام على عمل حربي كبير لم يكن يتفق وطبيعته الرقيقة المتأثرة . وأخيراً فأن للشعب الذي ظل على الرغم من كل انتقاد يمتدح به رئيساً له وسيبدأ مدة ثلاثين عاما وعليه واجباً في أن يسأل الى أي مدى كان الامبراطور مسؤولاً عن اضعاف مركز المانيا . فان الواقع أنه لم يكن له في سياسة بلاده الخارجية ذلك التأثير الذي كان ينسب اليه . فانه كان هناك كما أسلفنا الاشارة رجل آخر هو صاحب الكلمة النافذة في تلك السياسة والمصرف الحقيقي لها في خلال خمس عشرة السنة التي تلت انسحاب بسمارك . وذلك المصرف الحقيقي الذي كان يعمل من وراء ستار هو فريتس فون هولشتين فان هذا الرجل كان في وزارة الخارجية على تقيض الامبراطور . فلم يكن يظهر مطلقاً بل كان يحيا حياة رجل معتزل يزيده تقدم السنين ابتعاداً عن الناس وتجنباً لمشورتهم . هذا الرجل كان يرفض الرتب والالاقاب ويقنع بمركز متواضع جدا بالنسبة لغيره : مركز المستشار الخاص . والذي كان يحركه ويستثيره الى العمل هو شعوره بالسلطة التي كان يملكها في الخفاء لانه كان في الواقع يدير من غرفة عمله الهادئة دفعة السياسة الالمانية ويصرف مصائر الامه من هذه الناحية . فها كان يكتب عن مسائل اليوم بهمه لاتعرف التعب بيانات ومذكرات كانت ترسم طريق العمل لرؤسائه الذين كان عليهم أن يظهروا أمام الجمهور . ومنها كان يتبادل الرسائل السرية الشاملة مع أهم الممثلين الالمان في الخارج وأعظمهم شأناً ليكونوا هم أيضاً على علم بافكاره ونياته فيتصرفوا وفقاً لها .

وقد أدى به شغفه الحار بالتسلط على الغير وتحاشيه الاختلاط بمن هم حولة الى اساءة الظن تدريجاً باخوانه وعدم الثقة بهم حتى بات هذا له كالعلة

تلازمه . وقد لجأ من أجل ذلك الى الدسائس والانتقام حتى أصبح خصومه وأصدقائه على السواء يحنثونه . وليس شك ان في هولشتين كان ذا عقل راجح على غيره من العقول ، لكن هذا العقل لم تكن تنفيذ المواطف الحارة أو يستمد قواه من حياة قوية النبض بل كان عقلاً بما انفسه فكانت السياسة في نظره غير ما كانت في نظر بسمرك ، ليست الفن الذي يدرك به المرء مما هو ممكن لان الفن يتطلب غريزة تطابق الشعور وادراك الممكن يتطلب خبرة عظيمة تتم لصاحبها بعد أن يتعرض كيانه للعب الحوادث ويشهد هذا الكيان تطوراتها . أما هولشتين فكانت السياسة حساباً شديداً موزونة دقائقه وعملاً جامداً يكاد يكون عامياً له قوانينه وقواعده التي يجب التزامها بهما كانت الظروف . وسر تفوقه على من عداه من الساسة الالمان في وزارة الخارجية هو في انه كان يعلم كل الالمام بالاوراق الموجودة في تلك الوزارة وانه كان من تفكيره النشيط بحيث يفهم الحاضر بدقة ويزن شؤونه ووزناً دقيقاً . أما الامور التي لم تكن مما توزن أو يدركها العقل والتي تلعب مع ذلك دوراً كبيراً في الحياة السياسية والعادية على السواء فلم يكن يحفل بها . وقد كان بالتأكييد وطنياً عن عقيدة ورجلاً مخلصاً للمهمة التي انتزعها في الغالب لنفسه والقاهها على عاتقه . لكنه من البين جداً ان هذا لم يكن كافياً له لان يكون كفاً للمصاعب الهائلة التي كانت تلازم المحافظة على مركز المانيا والدفاع عنه . وبنفس النظر عن أن طلب هولشتين للسلطة كان يؤثر في حكمه فان أسلوبه الجامد الغريب المنطوي على التكهن والمضاربة والذي كان يحاول به معالجة الحوادث ، كان وبالاً على السياسة الالمانية .

وان المرء ليتساءل اليوم بحق : كيف أمكن أن توضع أمور الدولة الالمانية الفنية التي كانت عرضة لان تعبت بها الاحداث والتي أحاطها بسمرك بسياج كامل يقيها الاخطار في مثل هذه الايدي فلا ينزع الامر منها بمجر دوقوع

أول خطأ؟ والجواب عن هذا ليس فقط في ذلك الجهل بالأمور السياسية وعدم الاهتمام بما كان يجري ، فإن السواد الأعظم لم يكن يدرك من الحوادث الحقيقية الاظلمة الباهت الذي كانت الصحف تلقيه فيما بعد ، بل ان العارفين أيضا الذين كانوا مطلعين على خبايا الامور لم يكن عملهم يعدو أن يهزوا رؤوسهم كما جد أمر دون أن يحتجوا عليه احتجاجا فعالا في حين أن كبار الساسة كانوا مطويين في نظام هولشتين .

وأذن فإيضاح ذلك اعتمق مما اسلفنا . فهو يطالعنا من نظرة تلقيها على ذلك العصر بأ كمله . وقد تناولنا الكلام عن النهضة الاقتصادية في تلك السنين التي بحثناها ورأينا كيف تفتح لمانيا عصر من الثراء المتزايد . فعظم شأن الاهالي الذين كانوا في بداية القرن يحيون حياة متواضعة محدودة ، وازدادت رفاهيتهم وأنتجت الصناعة مشروعات عظيمة بفضل جماهير العمال ، وأحكم التاجر صلاته بالعالم بأسره ابتغاء تصريف بضاعته . غير ان هذا التطور بأ كمله كان يتجه أتجاهها واحداً : الى الخارج ، الى الفضاء ، الى أرض الله الواسعة . وكان التطور فتيما متهوراً لا تسنده تقاليد أو تدعمه أدمغة . فلقد نسي شعب الشعراء والمفكرين احلامه السابقة لكنه استبدل بتلك الاحلام السابقة مثلاً علياً كان قد فات أو انها فلم تعد تصلح لذلك الزمن . وقد اهتدى الى قبس من الحقيقة فاندنم الى الناحية الجديدة نابداً في الوقت عينه كل قديم . شعاره الطلب والتقدم والرقى والنفوذ يعترف بها في كل مكان ويوعظها على رؤوس الاشهاد ، فكان ان نشأ عن ذلك شيئان : ظهور امام العالم في غير تفكير وعبارات ضخمة عريضة ، وخروج اليه في صورة مستنزة في غير ما حاجة الى الاستفزاز . هذا الى تبجيل هائل للعقل الحاسب الذي كان يلوح انه القائد الامين الى النجاح . وقد كان العقل هو الاله الحقيقي لذلك العصر ، عليه أن ينفذ والاهة القديمة ويثل عروشها لانه بموته قد أصبح السير في الطريق الجديد الى

الحقيقة سيراً ميسراً • أما أحب بنات هذا الاله وهى الميكانيكا التى خلقت
السكك الحديدية والبواخر وآلاف وسائل الراحة والكسب فقد حلت
بمعجزاتها المحسوسة محل معجزات الايمان التى سادت فيما مضى من الزمان •
وآمن دلالة على كيان عصر من العصور هو الاسلوب الفنى ، فهو الذى
يعكس وجه الجيل الحقيقى لأنه يرينا كيف استطاع الجيل أن يكون قالمه
الداخلى ويمرضه • أما عشرات السنين التى نتناول الكلام عنها هنا فلم تلد
إلا أسلوباً ممجوجاً خلوياً من الدوق • فالأدب والتصوير تحولات مدارسها
سراعاً الى تمجيد الواقع وخلف المذهب المادى مذهب الريالزم وباتت العلوم
الطبيعية باعتبارها الوحيدة التى تركز اليها لانها تركز على حقائق محسوسة
نوعاً من الديانة •

وطبيعى أن تسري هذه الحركة التى وصفناها الى ساحولها . بيدأنها وجدت
فى المانيا تحمساً خاصاً يدل على سلامة النية ، وظهرت فيها فى صورة بارزة
لان الشعب الالماني كان يمشى قبلها فى عزلة المستضعف الحالم فبات يسمع
لاول مرة بعد قرون صيحة الدعوة الى القوة تحملها الريح الجديدة • وأصبح
ما صار عند الغير عادة أمينة طبيعية ونعى به التوق الى التوسع والكسب
والوجود العالمى ، يؤثر فى دولة وسط أوروبا التى ظلت طويلاً مهمومة ممزقة
كعقيدة جديدة فى كيان وهب الالمان أنفسهم له فى مثل نشاط الصبى وعدم
تبعثر الشباب • فلم يلبثوا أن أساءوا فهم ريالزم بسمرك فآناً تراها منهم
مادية وآونة مضاربة لم يعمل فيها حساب دقيق • وهكذا أصبح الشعب بأسره
لا يخلص لروح مؤسس الجمهورية فسكان لجميهم يد فى التحول حتى هذا الذى
تم فى مصير البلاد السياسى •

هذا هو السبب الحقيقي في أن الالمان لم يفهموا الغلطات التي ارتكبت
وأن الذين ارتكبوها كانوا أبناء حقيقيين للوسط الذي كانوا يعيشون فيه
ويجب ليكون النقد عادلا أن لا يقتصر على الافراد بل أن يتسم للمصر
كله فانه بذلك تكون النظرة الى الماضي ذات معنى عميق للحاضر .

